المحاضرة الحادية العاشرة: من بلاغة الخطابة النبوية

تمهيد

الخطابة نوع من أنواع النثر الفني الذي يعتمد على المشافهة، ويهدف إلى الاستمالة والإقناع والتأثير في نفوس السامعين، وقد اتخذها الأنبياء والمصلحون أداة مهمة في نشر تعاليمهم، وشد أسماع الناس إليهم. وقد وجد العرب في الخطابة خير وسيلة لإثارة الحماس والحث على القتال، وجلب النفع ودفع الضرر ومقارعة الظلم وحقن الدماء، لهذا اعتنوا بها عناية فائقة، فهي من مستودعات سر البلاغة ومجامع الحكم، بها تفاخر العرب قديما وحديثا. واشتهر بها عدد من الخطباء حتى أنه ضرب بهم المثل في الفصاحة والبيان وطلاقة اللسان، على رأس هؤلاء "قس بن ساعدة الأيادي" الذي كان أول من قال في الخطبة: (أما بعد). وسار الآخرون على منواله وهو أيضا أول من اتكأ على العصا على المنبر. ومن الخطباء "أكثم بن صيفي" الذي لا يقل شأنا بفصاحته وبلاغته وطلاقة لسانه.

ولأن الدعوة الإسلامية كانت في بدايتها ، ظهرت الحاجة إلى إنشاء واقع أدبي جديد، فتحول الاهتمام من الشعر إلى النثر. وظلت الخطابة في نفس الدرجة من العناية خلال العصور التي تبعت العصر الإسلامي الأول، فاعتنى الخلفاء الأمويون والعباسيون ومن جاء بعدهو بها.

تعريف الخطابة

هناك جملة من التعريفات لهذا الفن الأدبي الذي حظي باهتمام الفلاسفة وعلماء المنطق والأدباء، فوضعوا له تعريفات كثيرة منها:أن الخطابة (قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة)[1]. وأنها (قياس مركب من مقدمات مقبولة أو مظنونة من شخص معتقد فيه والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم)[2]. وهي (فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته)[3]. وهي أيضا (فن أدبي هدفه التوجيه والتحويل والاستمالة والإقناع)[4].

---

[1]–أرسطو طاليس: الخطابة، تحقيق وتعليق عبد الرحمان بدوي، وكالة المطبوعات الكويت، دار القلم بيروت، لبنان، 1979، ص9.

[2]– على بن محمد الشريف الجرجاني: التعريفات، مكتبة لبنان، ساحة رياض الصلح، بيروت،1985، ص104.

[3] – أحمد محمد الحوفي: فن الخطابة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، ط4، ص15

[4] – جورج غريب: صدر الإسلام، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط1983،4، ص57.

وأخيرا هي:(فن من فنون الأدب النثري، مختص بكلام يلقى إلقاء أمام جمهور مستمع، ويعرف بالخطبة، ويهدف إلى توضيح أمر أو قضية هما مثار جدل، لإفهام هذا الجمهور و توجيهه واستمالته بإثارة عواطفه، لاتخاذ موقف ما، هو الموقف الذي يرمي إليه الخطيب)[1].

فهذه التعريفات، الأول يركز على الإقناع دون أن يضع المخاطب في أولويات اهتمامه . والثاني يركز على الجانب المنطقي للخطبة أي أنه يضع الخطيب في أولويات اهتمامه، مع عدم إهمال المتلقي (يركز على الخطيب المتصف بالمنطق، والخطبة القائمة على المقدمات والنتائج وعلى المتلقي الإقناع والاستمالة). والثالث يركز على الأداة المستعملة في الخطبة وهي المشافهة قصد إقناع واستمالة المتلقي. والرابع تعريف أدبي يركز على المتلقي قصد توجيهه واستمالته وإقناعه. والأخير تعريف خاص بهذا اللون الأدبي من الفنون النثرية روعي فيه الخطيب والمتلقي معا. فهذه التعريفات تفرّد كل واحد منها بخاصية أو أكثر إلا أن هناك ما يجمع بينها جميعا خاصة ما تعلق بالمتلقي كالإقناع مثلا.

نماذج من خطابته صلى الله عليه وسلم

بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم رسالته سِرّاً وفي نطاق ضيق إلى أن نزل عليه قول الله تعالى: (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) فكان ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: "لما نزلت: وأنذر عشيرتك الأقربين، صعد على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فِهر، يا بني عَديّ لبطون قريش حتى اجتمعوا فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيّ؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .. قال أبو لهب: تباً لك يا محمد ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (8.(

ولم يكن إنذار عشيرته وسائر قريش محققاً لأهداف الدعوة بصورة إيجابية، فانطلق الهتاف ببعض مكونات الرسالة في أسواق العرب (عكاظ ومَجَنَّة وذي المجاز) قبل انصرافهم إلى الحج، ويتجه إليهم

[1] – أنطوان القوال: فن الخطابة ، دار العلم للملايين ، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص11.

في منازلهم قائلاً لهم: "أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتذل لكم العَجَم، وإذا آمنتم كنتم ملوكاً في الجنة"[1].

ولم تَفْتر عزيمة الرسول صلى الله عليه وسلم عن أداء رسالته، بكل ما أتيح له من سبل للاتصال، فكان التوجيه بالخطبة التي أعدّ نفسه لها، واعتبر سائر القرشيين قوماً له، لا تفريق في الإبلاغ بين قريب وغريب، وجمعهم بتأييد من الله تعالى، وقدم لهم أول خطبة له بمكة المكرمة؛ لدعوتهم إلى الإيمان، قال: " إنّ الرائد* لا يكذبُ أهله، والله لو كَذَبْتُ الناس جميعاً ما كَذَبتكم، ولو غررتُ الناس جميعاً ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسولُ إليكم الله خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثُنَّ كما تستيقظون، ولتحاسُبنَّ بما تعملون، ولُتجزون بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءا، وإنها لجنة أبداً. أو لنار أبدا".

وقد تجلت صورة الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الخطبة، إذ بدأت بقول ثابت مؤكد، كمفتتح عاطفي لعلاقة الرسول بقومه، قال: "إن الرائد لا يكذب أهله"، ثم جاء البيان شمولياً لكافة الأطياف، ومتنوعاً في العرض، بدءاً بزرع ثقتهم في دعوة الرسول، وأكد الخطاب نهايتهم بالموت وبعثهم كما اليقظة، للحساب على أعمالهم، وتلقي الجزاء بالجنة، والعقاب بالنار، قال تعالى: "فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ" الزلزلة 7-8.

والجمل مؤكدة بأكثر من مؤكِّد، ومرتبطة ببيان نتائج الأعمال وعواقب الإهمال، ودعمها بالتشبيه البلاغي، والمطابقة اللفظية، دون تكلف في السجع، أو توعر في اللفظ، أو استعلاء في بيان الشأن، ودعم تقربهم منه، وعدم ابتعادهم عنه، وحاصل النتيجة من خلال تعقيب عمه أبي لهب بالرفض، وأبي طالب بالتأييد والدعم.

هذه الخطبة مع قصرها قطعة أدبية فريدة ، ورسالة إبلاغية موجزة، وباكورة دعوية ملائمة، مع تساوي فقراتها، وسهولة الطبع فيها، ولين الخطاب في مجموعها، ولذا بقيت راسخة في الأحاديث النبوية، ومنتخبات السيرة والأدب والبلاغة.

---

[1] – تهذيب الطبقات الكبرى، ص 101.

*– الرائد هو المرسل لاختيار مكان النزول

د- مظاهر البلاغة في خطابته (ص)

تتجلى بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم بكافة صورها، في أقواله التي ملأت الكون ضياء ونوراً، بعد أن تكونت مفرداتها في مكنون نفسه، وأشرقت بصيرته فنطق بالكلمة الفصيحة، والجملة البليغة، التي طابق بها أحوال الناس الذين اختلفت أصقاعهم، وتعددت ألسنتهم، فجاء البوح والإفضاء طبعاً أصيلاً، ونبعاً صافياً، فكان صلى الله عليه وسلم كما وصف نفسه في خطاب القرآن الكريم (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) سورة ص: 86..

ومن مظاهر بلاغة الخطابة النبوية اعتمادها ساحة الأدب العربي على أنها أنها نماذج مختارة؛ للتدليل بها على أكثر الموضوعات البلاغية، ومفرداتها المتعددة، مع أنه صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولكن الله تعالى صاغه كياناً بشرياً في غاية الإيجاز والإعجاز، ومن ابتداءات خُطَبه قوله عليه الصلاة والسلام: "الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونؤمن به نتوكل عليه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ومن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

كانت خطابة الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة مع قلتها خلال البعثة موجزة وقصيرة، وليست بمواصفات الخطبة المتعارف عليها منذ أن وضع قس بن ساعدة بعض الثوابت والمرعيات لها، وكما في خطب الجمعة والمناسبات فيما بعد.

وكانت خطابته صلى الله عليه وسلم مواجهة مباشرة من خلال اللقاء مع أعداد قليلة في قرب مكاني، أو من على ربوة عالية، ويمكن أن يُواجه في خطبته بالاعتراض والرفض، أو بالتكذيب والسخرية، أو يكون الخطاب إجابة عن طلب أو سؤال فيكون الرد بخطبة موجزة تعرض للموضوع بلا مبالغة أو تهويل أو تكلف في القول، أو تزيين للحاضر، أو تقليل من الشأن الغيبي، الذي لا يطلع عليه أحد من الخلق.

السمات الفنية للخطابة النبوية

تعد الخطابة النبوية قمة البلاغة والفصاحة، فقد جمعت بين عمق المعنى وجمال الأسلوب، وجعلت من أقوال النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) دستوراً خالداً للمسلمين، ومدرسة في فن الإقناع والتأثير، وتتناول هذه المحاضرة أبرز سمات هذه البلاغة وأمثلة حية من خطبه الشريفة، مع توثيقها.

كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يفتتح خطبه بـ "الحمد لله" و"أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله" ويتبعها بالصلاة والسلام عليه، مما يرسخ التوحيد والشهادة. ومن أساليبه:

- **النداء المؤثر**" :أيها الناس..."، "يا معشر قريش..."، "يا أيها الذين آمنوا."...
- **الإيجاز وجوامع الكلم** :اختصار المعاني العظيمة في كلمات قليلة.
- **الاستفتاح بالبسملة والتحميد** :يرسخ لله والحمد والثناء، مثل حديث: "كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه بـ (بسم الله) فهو أقطع ."...